... مصْبَاحُ كلّ فَضْل ﷺ...

في السنة السابعة للهجرة حدثت غزوة ذي قرد ـ أو الغابة ـ وكان فيها:

عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: كانت ثقيفٌ حلفاء لبني عقيل، فأسرت ثقيف رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ، وأسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من بني عقيل، وأصابوا معه العضباء[1]، فأتىٰ عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق، قال: يا محمد! فأتاه، فقال: «ما شأنك؟».

فقال: بمَ أخذتني، بمَ أخذتَ سابقة الحاج؟[2].

فقال إعظاماً لذلك: «أخذتك بجريرة حلفائك ثقيف». ثم انصرف عنه، فناداه فقال: يا محمد! يا محمد! وكان رسول الله ﷺ رحيماً رفيقاً، فرجع إليه.

فقال: «ما شأنك»، قال: إني مسلم!

قال: «لو قلتها وأنتَ تملك أمرك أفلحتَ كلّ الفلاح»، ثم انصرف.

فناداه فقال: يا محمد! يا محمد! فأتاه، فقال: «ما شأنك؟».

قال: إني جائعٌ فأطعمني وظمآن فاسقني، قال: «هذه حاجتك».

فغُدي بالرجلين، قال: وأُسرت امرأةٌ من الأنصار، وأُصيبت العضباء فكانت المرأة في الوثاق، وكان القوم يُريحون نَعَمَهُم بين يدي بيوتهم،

---

(١) هي: ناقة المصطفىٰ ﷺ.

(٢) هي: العضباء، فإنها كانت لا تُسبق.

فانفلتت ذات ليلةٍ من الوثاق فأتت الإبل ، فجعلت إذا دنتْ من البعير رغا[1] فتتركه ، حتىٰ تنتهي إلىٰ العضباء فلم ترغ.

قال: وناقةٌ منوّقةٌ[2] ، فقعدت في عجُزها ثم زجرتها ، فانطلقت ونذرُوا بها فطلبوها فأعجزتهم ، قال: ونذرت لله ، إن نجّاها الله عليها لتنحرنّها ، فلما قدمت المدينة رآها الناس ، فقالوا: العضباءُ ، ناقة رسول الله ﷺ؟!

فقالت: إنها نذرت ، إن نجّاها الله عليها لتنحرنّها ، فأتوا رسول الله ﷺ فذكروا ذلك له ، فقال: «سبحان الله ، بئسما جَزَتْها ، نذرت لله إن نجّاها الله عليها لتنحرنّها ، لا وفاء لنذرٍ في معصيةٍ ، ولا فيما لا يملك العبد»[3].

أجل يا روح الوجود يا رسول الله!

لقد علّمت الأجيال الأخلاق الحميدة ، وليس ذلك شعاراتٍ جوفاء لا رصيد لها علىٰ أرض الواقع ، بل هي دروسٌ عملية ، وليت الأمة أخذتْ بذلك كله:

أنت مصباح كل فضلٍ فما تصدر ... إلاّ عن ضوئك الأضواءُ
لم تزل في ضمائر الكون تختار ... لك الأمهات والآباءُ

* * *

(١) الرغاء: صوت الإبل.
(٢) أي: مذللة مروّضة منقادة.
(٣) سنن أبي داود: ٣/ ٦٠٩ ، صحيح مسلم: ٣/ ١٢٦٢.